قراءة في مفهوم التحرر عند فوكو

الباحث:Barry Stoker(*)

ترجمة: د. ليث أثير يوسف(**)

مراجعة:د.حيدر ناظم محمد(***)

لـم يكـن لـدى فوكـو أي نظريـة صريحة حول مفهوم التحرر ومن ثم لم يكن لديه تفسـير صريح في مؤلفاته حول هذا المفهوم. سنسـعى هنـا الى محاولة للوصول الـى هذا المفهوم في مؤلفاته ومجمل الإشارات التي تتعلق به.

ارتبـط هـذا المفهـوم مع سـبعة حقول في معظم مؤلفات فوكو وهي:

علـم الجمال، الخطـاب، الـذات، القانون، السيادة، المؤسساتية والاقتصاد السياسي، على الرغم من أن تلك الحقول لن تعطينا هذا المفهوم بشـكل مميز تماماً، ورتبنا تلك الحقول تاريخياً وفـق تناول فوكو لها فقـد بدأ بعلم الجمال وبقي معه بأعماله اللاحقة.

إن كتـاب تاريـخ الجنـون فـي العصـر الكلاسـيكي(صـدر سـنة ١٩٦١) وهـو اولى اصـدارات فوكـو، نجد فيه عـرض وتأمل في ولادة التراجيديا عند نيتشه. صحيح ان الإشارة غير مباشـرة و موجـزة الى تراجيديا نيتشـه، ولكنهـا بنفـس الوقت كانـت مهمة ففـي نهاية الكتـاب خلص الـى بيان أهمية نيتشـه في الفن الحديث، ناهيك عن النزق النقدي الثوري الذي خلفـه نيتشـه في فلسـفة فوكو، وهـو امر غير خاف على أحد، فضلاً عن تجربة الجنون التي اجتاحـت الفـن الحديث وبالأخـص في أعمال ماركيز دوسـاد[١]، فإن كوخ وانتونين دوساد[٢] كما نجد إشـارة أخرى في كتابات فوكو تمثلت في تراجيديا فرنسـا الكلاسيكية، والأخص في القرن السـابع عشـر وكتابات جان راسـين[٣] فـي الجنون ومكانته فـي التراجيديا الأغريقية. ومن ثم طوّر هذا الامـر مفهوماً جديداً للتحرر ممزوجـاً بفضـاء داخلي(ربما يقصـد الكاتب هنا مفهوم الابيسـتيمي لدى فوكو) كان له الاثر البالـغ في خلق مفهوم ما نعتقد انه الذات اليوم؟ قـررت مصيرها فـي حدود العقـل وعرضت نفسها كذات نقية(متحررة عفوياً تبدو هذه جملة

(*) الجامعة التكنلوجيا/ اسطنبول

(**) كلية الاداب- الجامعة المستنصرية

(***)الجامعة المسستنصرية- كلية الاداب

اعتراضية من قبل الكاتب و الذي يسوقها على لسان فوكو باعتبار الاخير يرفض وجود ذات مستقلة متحررة من نسقية وسطوة الابيستيمي), وقد حاولنا تعقب هذه الذات السابقة، وذات الحس الجمالي والذات العفوية، بدءاً من أعمال فوكو المبكرة الى أعماله الأخيرة متتبعين تعليقاته حول الفن عموماً وخلوه من الحكم الذاتي(Subjective judgment) ومكانة علم الجمال وعلاقته بالأفكار القديمة.

تتدفق التساؤلات حول الحرية الجمالية عند فوكو الى فكرة الخطاب(discourse) والخطاب هو سؤال عند فوكو وله معنيان أساسيان وهما: ترتيب الخطاب(بمعنى تراتبية وجود الخطاب كسلطة تسهم في صناعة المعرفة، بين جملة وسلسلة من الخطابات الاخرى التي تتزاحم للهيمنة و الانبثاق) وأشكال الخطاب كـ(كلام ذاتي[٣*] Subjective Speed) وهناك من يدعي بأن فوكو استبعد، الى حد نسبي، مفهوم الذاتية من الخطاب في أعماله المبكرة ووضع مفهوم الفردانية(Individuality) تحت قيود أو(اغلال لغوية)، ومع ذلك فكتابه الأول حول الخطاب الذي أسماه(الكلمات وألاشياء Order of Things))(الذي صدر سنة ١٩٦٦) عرض فيه فوكو الخطاب بوصفه نسق من التعبيرات التخييلية والغريبة مقتبساً نصوص الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس[٤] وشارحا لحقيقة الذاتية بصورة أدبية بمنتهى الغنى والثراء.

أما في مؤلفه الآخر المعروف بـ(حفريات المعرفة Archeology of Knowledge)(صدر سنة ١٩٦٩) فهو مكمل للمؤلف السابق الذكر وفيه تنوع في مفهوم الخطاب بوصفه استراتيجيات تتوزع وفق جملة من المفاهيم كالندرة والتقسيم والاستبعاد، وفي فصله الأخير يصبح من الواضح لدى بأن فوكو لم يستبعد الذاتية كمفهوم له سياقاته التي تمثلت في تنوع وجودها و اختلاف تمظهرها كالفردية، انما كان فوكو يحاول إنشاء إطار عمل منظم لهم في محاولة لاكتشاف أشكال الخطاب المختلفة ومن خلال مؤلفه أو محاضراته الموسومة[٥] (Oedipus and Anarchy). ففي بداية السبعينيات من القرن الماضي حاول فوكو إبراز مقاربات ما بين المظاهر الجمالية والسياسية أو(اهتماماته في الجوانب السياسية والجمالية للحرية أو التحرر) فهو يعتبر ان المسرح قدم نوعاً من العجائبية المميزة والتي اعتقد أرسطو في حينها بأنها قدمت شيئاً بالغ الاهمية للفلسفة والعلم، وربما تلك العجائب كانت أكثر عقلانية لأرسطو، أما عند سوفوكليس فهي فاقدة للعقلانية، بعد ذلك بحث فوكو في تلك المحاضرات آليات تشكل الخطاب الشرعي في أثينا آنذاك(في عهد سوفوكليس) و الذي يعطي آنذاك أي اعتبار لمفهوم النبوة قبالة الاسطورة كونهما تجلبان للعالم وللأفراد على حد سواء الشعور باللامسؤولية و النزوع الى تعميق النزوع الفردي،(كما هو حال النظام الديموقراطي).

وعلى الرغم من هيمنة الجانب الديني وحضور النزعة الاسطورية لدى الملك أوديبوس إلا أن هذا الأخير هدد تيراسياس بالقمع وأخضاعه للقانون المستخدم في أثينا آنذاك كونه يميل الى استحضار الجانب الفردي على حساب الجمعي، ولكونه يتجاهل بنفس الوقت الإشارات السماوية.

أشار فوكو الى مفهوم البارايسيا[٦] (Parrêsia)(حكمة أغريقية وتعني القول الخالي من الخوف ويحمل الصدق دائما وهذا المصطلح متضمن في سرد المأساة

اليونانيــة القديمــة وتطــور هــذا المفهــوم أو المصطلــح مــن ســوفوكليس الــى يوريبدس(Euripides ٤٨٠ – ٤٠٦ ق.م) لكــن مســار العقلنــة(Rationalisation) فــي العالم القديم عنــد ســوفوكليس تحول الــى نوع مــن الكتابة الاســتطرادية(المنطقية) عنــد يوريبدس خلافاً للغة الشــعرية عنــد ســوفوكليس، فيوريبيدس. عــرض لتمــرد البشــر ضــد الآلهة مســتخدماً الباريســيا وأظهر أيضاً كيف برزت الباريســيا ضمن التجمعات البشــرية المعارضة للسلطة، فالباريســيا كانت ســمة للديمقراطيــة اليونانية القديمة وهذا ما أكده فوكو فتلك سمة أساسية في الواقع الاجتماعي والسياسي في أثينا.

ولا يطــرح فوكــو هنــا أي نظريــة مثالية تتعلــق بالليبرالية والتحرر من خلال طروحاته فهي ليســت طريقته فــي الكتابة فجّلُ أفكاره في السياســة والأخلاق ينظــر إليها من خلال بوابة التاريــخ والجينولوجيــا والتحــولات ومع ذلك فهــو يعطينــا انطباعاً بــأن كل مفهــوم وإن لم يــرق الى صيغــة مبدأ إلا انه ســيكون مهماً إذا توافق مع مبدأ الذاتية وكل ما يعزز فكرة الذاتية فهــو أمــر مهم لدى فوكــو فنســتطيع أن نلمس هنا ومن خــلال كتابات فوكو أهمية الباريســيا حيــث ينظر إليها فوكو بأنهــا مظهر من العناية بالــذات أو النفــس(Care of the self) تماماً كمــا كان يفعــل قدمــاء الأغريق فــي موضوع تقويــة القــدرات العقليــة والجســمية للفرد من خلال الحمية(diet) والغذاء الصحي والفلســفة وبقيــة الممارســات التي تجعل الفــرد أكثر قوة ومناعة فالباريســيا نفســها جــزء لا يتجزأ من الفلســفة فطبقاً لفوكو الباريسيا أثبتت نفسها في حــوارات أو محــاورات أفلاطون حيث عبرت عــن نفســها بأنها صــراع فكــري داخلي حول الحقيقــة أكثر من كونها خطابا عاماً فالباريســيا هي إحــدى أبعــاد الخطاب الصــادق التي كان يســعى إليــه أوديــب في مأســاة ســوفوكليس، أمــا البعد الآخــر لها، طبقــاً لمحاضرات فوكو فــي القانون، فتمثــل في العلاقة بيــن أوديبوس وتيرســياس وأســاليب العذاب التي تعرض لها الاخيــر، ذلــك لأن أوديبــوس كان يتحدث من وجهة نظرته السياســية والقانونية والســيادية(Sovereignty)، وينظــر فوكــو الــى إن هذا الامر بأنه نوع مــن جينولوجيا القانون تطور ووصــل الى العالم الحديث وربط الامر بحكاية ظريفــة حدثت في القرن التاســع عشــر عندما حاول احد الأطباء النفسانيين انتزاع الاعتراف بالجنــون مــن احــد المرضى، فطبقــاً لفوكو لا يمكــن فصــل الجوانب أو مظاهــر القانون عن واقع السلطة والقوة، فولادة الباريسيا والصيغة الشرعية في عصر الإغريق التراجيدي تعطينا صورة حول مفهــوم التحرر والتبعية للســلطة وهمــا خليطان دائميان في ذهــن فوكو وهذا ما يقودنا الى السؤال حول ماهية السلطة والتحرر فــي كتابات فوكــو. ربما نســتطيع أن نجد أحد تلك الأجوبة من خلال مقــالات فوكو المتأخرة الموســومة(Omnis et Singatim)(البعض والكل)(نحــو نقد للعقل السياســي) التي ألقاها في جامعة ســتانفورد ســنة ١٩٧٩ عرض فيها فوكو حججه حول الســلطة الشاملة وبأنها تنظر الى الدولة والأفراد كشــيء واحد لذا يتوجب ان نعدهما معاً، وهذا الأمر ليس رفضاً للفردانية أو الذاتيــة بل إن فوكو لا يقرْ بفكرة أنهما مزيجان وذا طبيعــة واحــدة وعميقة, فهــدف فوكو كان بيان أفعال النفس في ذاتهــا لبيان مفهوم الذاتية وهذا ما أكده في كتاباته في الأخلاق، فالفردانية الكاملة(Complete individuation) تعني أن تتضمــن إن الفرد أصبح موضوعاً للحكومة وهــذا النوع مــن الفردانية مشــابه لمــا عملته الكنيســة الكاثوليكية في تكوين الضمير الداخلي مــن خــلال الفحص الذاتــي للخطيئة وكرســي

الاعتراف الذي يتضمن صوراً خاصة للفرد مع الراهب لكشف الخطايا وترتيب الكفارة، هذا الأمر الذي يتقاطع مع السلطة القضائية ذلك ان الكنيسة وأساسها الديني ارتبط بمحاكم التفتيش والاعتقالات والاستجوابات، ومعاقبة الزنادقة المشتبه بهم أصبحت نفسها مصدرا من مصادر الإجراءات القانونية الحديثة، فهذا التشكل السابق من الفردانية(Individuation) له ما يناظره في جماليات الوجود أو طريقة العيش والتي يرى فوكو بأنها تراكمات وإنتاج وعناية الأُقدمين بالذات، فهو نتاج لمراحل طويلة من التشكلات التاريخية لاختراعات الذات، وقد ميز فوكو نفسه بين تلك التشكلات للذات الحديثة، وربما اقتباساً من المصطلح الذي استعمله جارلس بودلير في مقالته المشهورة(The painter of modern life) (رسام الحياة الحديثة) حيث أشار المؤلف الى ذلك الرسام الذي يعبر عن الواقع وفق منظوره الذاتي، وهذا الموقف أو النظرة الحديثة إذا ما قورنت مع التشكل التاريخي للتنوير وتطوره فإن التنوير كفكرة مثالية احدثت تناغماً مع تطور فكرة الحكومة(government) أو فن الحكومة، فالحوكمة الذاتية(govern mentality) بمعناها الأصلي تشير الى خليط من الأساسات المجتمعية والى وحشية انعزالية وتعدان كمصدر لنظرية للحقوق وهذا يبدو جلياً في القواعد الخاصة بالقانون والاقتصاد، ففكرة الرجل الاقتصادي(economic Man) تشير الى ذلك الإنسان إو الشخص الذي يعمل وفقاً لحاجاته الاقتصادية، ويُرينا كتاب(الكلمات وألاشياء) ان الماركسية لم تطرح بديلاً، وأشار إلى ماركس بأنه(لم يعد ينتمي لبرادايم القطيعة) وأشار أيضا الى دعوة ماركس للاقتصاد السياسي وتأويلاته، وربما كان يشير فوكو الى أهمية الاقتصاد السياسي ومعناه الضمني والمفيد. كذلك فان أبحاث فوكو اللاحقة حول الليبرالية وكتابه(ولادة السياسة الحيوية) أخذ نقداً غامضاً بعض الشيء، فهو يرى نوعين من الليبرالية الجديدة: الأولى هي الليبرالية المنظمة(Ordoliberalism)والثانية أسماها بالليبرالية الفوضوية(Ararcho Liberalism)، الليبرالية المنظمة ظهرت في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية تحت تأثير مدرسة فرايبرغ(Freiburg) وهي تتبع الاقتصاد الكلاسيكي لعصر التنوير عن طريق رفضها للنموذج الطبيعي للاقتصاد وتفضل عوضاً عن ذلك التصميم المؤسساتي لتقديم إطار ثابت لاقتصاد السوق ومجتمع توافقي وسياسة ديمقراطية ليبرالية. يتفق فوكو مع مدرسة فرانكفورت(أدورنو، ماركيوز وهابرمارس) في أن الليبرالية الفوضوية هي مخلفات ونتائج لنقودات ماكس فيبر للماركسية، فمدرسة فرانكفورت أعادت صياغة الماركسية، بينما الليبرالية الفوضوية أعادت صياغة الليبرالية. وهناك أنواع أخرى من الليبرالية أشار اليها فوكو في الولايات المتحدة وهي نتاج للسلطة المعارضة للحكومة التي أنشأها الاقتصاديون في شيكاغو فهم يسعون الى إقامة بديل لسلطة القوة وإبدالها بالعلاقات التجارية الحرة. ان كلا النوعين من الليبراليات السابقة هي نتاج للحوكمة الذاتية(governmentality) وكلاهما متجذرتان في نقودات السلطة أو القوة، فالليبرالية المنظمة نشأت عن طريق نقد الدكتاتورية النازية الاستبدادية أما الليبرالية الفوضوية نشأت عن طريق نقد التوسع في الدولة الليبرالية، فحين وصف فوكو الليبرالية الجديدة(new Liberal) الأفراد لحقائق اقتصادية فهل كان فوكو ينتقد شكلاً من أشكال الانضباط فيها أم كان يُرحب بصيغة التحول من المظاهر السلبية لسلطة الدولة ؟

ارتبط الانضباط هنا بالحوكمة الذاتية(governmentality)كصورة للقوة الغير مرئية ولكنه يضع الجميع مرئياً للسلطة، فالسلطة مبثوثة في كافة ارجاء الجسد الاجتماعي، إن النموذج الذي وضعه جيرمي بنثام والذي أسماه(Ponopticon) أو السجن المركزي حيث يوجد بداخله برج المراقبة المركزي الذي يتيح مراقبة السجناء من حيث لا يشعرون، وهذا النموذج لكل المؤسسات الحالية، حسب رأي فوكو، وربما هذا يتناقض مع مجتمع العقوبات حيث السلطة مرئية للعيان وتفرض العقوبات بما في ذلك الأعدام. واحدة من التساؤلات التي يجب أن أطرحها حول فوكو هي الى أي مدى تتمتع الليبرالية الجديدة ببعض الرضا عند فوكو والى أي مدى يرفضها بكونها نظام صارم ؟ بالنسبة لي أرى ان فوكو ينظر إليها بأنها قوة تنعكس على ذاتها كالباريسيا التي تُرينا إن الرأي المقهور والمعارض في الواقع يمكن أن يتحول الى رد فعل يتمثل في الرد المعاكس والمقاوم للدولة وهذا لا يعني إن فوكو قد رحب بالليبرالية الجديدة بأي صيغة كانت لكنه يقدمها كبديل ويرى أنها يمكن أن تقلص سلطة الدولة طبقاً لملاحظاته حول السياسة والاقتصاد وربما قد يرحب بشكل من أشكال الليبرالية الجديدة المصحوبة بأشكال اللامركزية للسلطة مع أخلاقيات من اختراع الذات.

أدعى شريك فوكو في الأبحاث الفلسفية(فرانسوا أيوالد Fransois Ewald) أن رفيقة كان ليبرالياً لبقية حياته ونحن نتحفظ على هذه المقولة ونتجنب القول بأن فوكو كان ليبراليا طوال حياته وكان ناقداً للسلطة، وحسب ما تقدم ومن خلال وجهة نظري الشخصية المحفوفة بالشك إن فوكو شارك باكتشاف مفهوم جديد وغني للتحرر مرتبط بالجماليات، الذاتية، الاخلاق، الكلام، القانون، المؤسسات والاقتصاد السياسي.

الهوامش:

(١) ماركيز دوساد: روائي وثوري فرنسي مجمل رواياته كانت فلسفية متحررة من كل قوانين أخلاقية(١٧٤٠ – ١٨١٤).

(٢) شاعر وأديب ومخرج مسرحي فرنسي(١٨٩٢ – ١٩٤٨).

(٣)(١٦٣٩ – ١٦٩٩) كاتب مسرحي فرنسي ومن أشهر الكتاب التراجيديين من أهم اعماله اندروماش وفيدرا.

(*) الذاتية (Subjectivity) وما يقابلها(Subjuctivation) تعني في البحث الفلسفي أمكانية انخراط في تجربة معيشية أكر من الحدود الداخلية التي يختبرها الفرد ويجب التميز هنا ما بين الذات(Subject) وما بين الفرد(Person) فالفرد هو شخص فعلي حقيقة وجوده كلية أما الذات فهي تمثل ارتجد أحتمالية أن يؤدي الفرد أو الجماعة مجموعة أدوار في سياق تاريخي أيديولوجي مشروط بسلسلة من العلاقات التفسيرية ينظر(لا مركزية الخطاب: الذات بين المعرفة والسلطة – انطونيوس نادر).

(٤)(١٨٩٩ – ١٩٨٦) شاعر وكاتب قصصي خيالي ومترجم أشه ركتبه(Fiction and Aleph).

(٥) تراجيديا من الأدب الكلاسيكي اليوناني للكاتب سوفوكليس عُرضاً سنة(٤٢٩ ق.م).

(٦)مصطلح يوناني يصعب ترجمته الا انه يمكن مقاربته من الصراحة، بمعنى القول الخالي من الرياء والمداهنة او إخفاء الحقائق فيما يتعلق بالخيارات المتاحة او المخاطر، فهو يرتبط بالسياسة وبمهمة السياسي في المجلس او البرلمان، فهو مصطلح سياسي اكثر من كونه أخلاقي .